غزوات المصطفى ﷺ

(٨)

غَزْوَةُ الحُدَيْبِيَةِ..

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

رُؤيَا الأَنْبِيَاءِ حَقٌّ

ذاتَ ليلةٍ رَأىٰ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم في الرُّؤْيَا أَنَّهُ دَخَلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ المَسْجِدَ الحَرَامَ فِي مَكَّةَ ، آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤوسَهُمْ وَمُقَصِّرِيْنَ .

وَفي اليومِ الثَّاني أَخْبَرَ المُسْلمينَ أَنَّهُ يُرِيدُ العُمْرَةَ ، وَكانَ ذٰلكَ في السَّنَةِ السَّادِسَةِ لِلْهِجْرَةِ ، فَماذَا كَانَ مَوْقِفُ المُسْلِمِينَ مِنْ ذلك ؟

لَقَدِ انْطَلَقُوا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، ذٰلكَ لأَنَّهُمْ قَدِ اشْتَاقُوا إِلَىٰ زِيَارَةِ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ ، وَإِلىٰ مَا فيها من المقدَّسَاتِ ؛ كالبيتِ الحَرامِ ، وَالكَعْبَةِ ، وَمَقَامِ إِبْرَاهيمَ عليه السلام ، ثُمَّ مَا فيها مِنْ

ذِكْرَيَاتِ الآباءِ والأَجْدَادِ...

وَفي ذِي القِعْدَةِ خَرَجَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ أَلْفٌ وَخَمْسُمِئَةٍ مِنَ المُهاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالبَدْوِ ، وَسَاقَ مَعَهُ سَبْعِينَ بَعِيراً ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ بِهَدَفِ القِتَالِ ، وَإِنَّما خَرَجَ مِنْ أَجْلِ العُمْرَةِ فَقَطْ .

وَلَمَّا وَصَلَ المَوْكِبُ إِلَىٰ مِنْطَقَةِ (ذِي الحُلَيْفَةِ) أَمَرَ الرَّسُولُ صَلواتُ اللهِ عَلَيْهِ بِأَنْ يُحْرِمَ المُسْلمونَ ، ويُقَلِّدُوا الهَدْيَ .

* * *

« يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ »

وَعَلَىٰ جَنَاحِ السُّرْعَةِ وَصَلَ الخَبَرُ إِلَىٰ قُرَيْشٍ ، فَخَرَجُوا وَمَعَهُمُ الأَطْفَالُ وَالنِّسَاءُ وَسَاقُوا مَعَهُمُ الإِبِلَ وَالبَعِيرَ و... ، وذٰلِكَ بِهَدَفِ مَنْعِ المُسْلِمينَ مِنَ الوُصُولِ إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ .

وَعِنْدَئِذٍ قالَ المُصْطفىٰ صلى الله عليه وسلم : « يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ ، مَاذَا عَلَيْهِم لَوْ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ العَرَبِ ، فإِنْ هُمْ أَصَابُوني كَانَ ذٰلكَ الَّذي أَرَادُوا ، وَإِنْ أَظْهَرَني اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلامِ وَافِرِينِ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ ، فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ ؟

فَوَاللهِ لاَ أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَىٰ الَّذي بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هٰذِهِ السَّالِفَةُ[1] » .

وَمِنْ رَحْمَةِ المُصْطَفَىٰ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ بِأَهْلِ مَكَّةَ ، فَقَدْ فَضَّل عَدَمَ الاصْطِدَامِ مَعَهُمْ ، فَغَيَّرَ طَرِيْقَهُ ، وَسَلَكَ ذَاتَ اليَمينِ ، وَلَمَّا وَصَلَ إِلىٰ ثَنِيَّةِ المرارِ قُرْبَ الحُدَيْبِيَةِ بَرَكَتْ نَاقَتُهُ القَصْواءُ ، فَزَجَرُوها مِرَاراً ، لٰكِنَّها لَمْ تَقُمْ .

فَقَالُوا : خَلأَتِ ـ أَي : حَرِنَتِ ـ القَصْواءُ .

فَقَالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « مَا خَلأَتِ القَصْواءُ وَمَا هُوَ بِخُلُقٍ لَهَا ، حَبَسَها حَابِسُ الفِيلِ عَنْ مَكَّةَ ، وَاللهِ لاَ تَدْعوني قُرَيْشٌ اليَوْمَ إِلَىٰ خُطَّةٍ يَسأَلُوني فيها صِلَةَ الرَّحِمِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا » .

* * *

---

(١) أي : جانب العُنق .

مُفَاوَضَاتٌ... وَمُرَاسَلاَتٌ

فَأَرْسَلَ أَهْلُ مَكَّةَ لِلرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم (بُدَيْلَ بْنَ وَرْقَاءَ) ، وَذٰلِكَ مِنْ أَجْلِ التَّفَاوُضِ وَالمُبَاحَثَاتِ ، فَلَمَّا عَادَ إِلىٰ قَوْمِهِ قَالَ لَهُمْ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّكُمْ تَعْجَلُونَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ، وَإِنَّ مُحَمَّداً لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ ، إِنَّما جَاءَ زَائِراً لِهٰذا البيتِ ، لٰكِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ لَمْ يَثِقُوا بِكَلامِهِ ، وَقَالُوا : أَيُرِيدُ مُحَمَّدٌ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْنا في جُنُودِهِ مُعْتَمِراً ، تَسْمَعُ العَرَبُ أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا عَنْوَةً ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنَ الحَرْبِ مَا بَيْنَنَا ؟

وَاللهِ لاَ كانَ هٰذا أَبَداً ، وَمِنَّا عَيْنٌ تَطْرُفُ!

فَأَرْسَلُوا (مكرزَ بْنَ حَفْصٍ) ، وَلَمَّا وَصَلَ كَلَّمَ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم ، ثُمّ عَادَ إِلَىٰ مَكَّةَ وَقَالَ لِلْقَوْمِ : سُبْحانَ اللهِ ، مَا يَنْبَغِي لِهٰؤلاءِ أَنْ يُصَدُّوا ، أَتَحُجُّ القبائلُ ، ويُمْنَعُ عَنِ البيتِ ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ؟! هَلَكَتْ قُرَيْشٌ وَرَبِّ البَيْتِ ، إِنَّ القَوْمَ أَتَوْا مُعْتَمِرِيْنَ .

فَقَالُوا لَهُ : اجْلِسْ لاَ عِلْمَ لَكَ بِالمَكايِدِ ، فَأَرْسَلُوا (عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ) وَهُنَاكَ ، رَأَىٰ مِنَ الرَّسُولِ اللُّطْفَ وَالتَّعَامُلَ الحَسَنَ ، فَعَادَ إِلَىٰ قُرَيْشٍ وَقَالَ لَهُمْ : مَا رَأَيْتُ مَلِكاً في قَوْمِهِ مِثْلَ مُحَمَّدٍ في أَصْحَابِهِ .

وَأَرْسَلَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم لَهُمْ (خِراشَ بْنَ أُمَيَّةَ) ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ عَقَرُوا بَعِيرَهُ ، وَكَادُوا يَقْتُلُونَهُ!

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ (عُثْمانَ بْنَ عَفَّانَ) ، وَأَمَرَهُ بِقَوْلِهِ : « اذْهَبْ إِلَىٰ قُرَيْشٍ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَإِنَّما جِئْنَا زُوَّاراً لِهَذا البيتِ مُعَظِّمِينَ لِحُرْمَتِهِ ، مَعَنَا الهَدْيُ نَنْحَرُهُ ونَنْصَرِفُ » .

فما كانَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِلاَّ العنادُ والاسْتِكْبَارُ ، ثُمَّ عمدُوا إِلَىٰ عُثْمانَ فَحَبَسُوهُ!!

* * *

وَتَحْتَ شَجَرَةِ الرِّضْوَانِ

وَعِنْدَمَا وَصَلَ الخَبَرُ إِلَىٰ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم نَدَبَ المُسْلِمِينَ إِلَىٰ البَيْعَةِ ، وَتَحْتَ شَجَرةِ الرِّضْوَانِ بَايَعَ المُسْلِمونَ رَسُولَ اللهِ عَلَىٰ المَوْتِ ، وَعَلَىٰ أَلاَّ يَفِرُّوا ، وَعَلَىٰ الصَّبْرِ عِنْدَ اللِّقَاءِ .

ثُمَّ وَضَعَ رَسُولُ اللهِ يَدَهُ الأُخْرىٰ ، وَقالَ : « وَهٰذِهِ لِعُثْمانَ ، إِنَّ عُثْمَانَ في حَاجَةِ اللهِ وَحَاجَةِ رَسُولِهِ » .

وَنَظَر الرَّسُولُ إِلَىٰ المُبَايِعينَ ثُمَّ قَالَ : « أَنْتُمْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ ، لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ » .

وَسَجَّلَ البيانُ الإلهِيُّ تِلْكُمُ البَيْعَةَ ، وَذٰلِكَ في قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ :

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

* * *

شُرُوطُ الصُّلْحِ

وَلَمَّا انْتَشَرَ خَبَرُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ ، خَافَ أَهْلُ مَكَّةَ ، فَأَرْسَلُوا (سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو) لِيُفَاوِضَ الرَّسُولَ بالصُّلْحِ ، وَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ قالَ : يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ الَّذي حَصَلَ لَيْسَ مِنْ رَأْيِ عُقَلائِنَا ، بَلْ شَيْءٌ قَامَ بِهِ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، فَابْعَثْ إِلَيْنا بِمَنْ أَسَرْتَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : « حَتَّىٰ تُرْسِلُوا مَنْ عِنْدَكُمْ » .

ثُمَّ عَرَضَ (سُهَيْلٌ) عَلَيْهِ شُرُوطَ الصُّلْحِ :

١ـ وَضْعُ الحَرْبِ بِيْنِ المُسْلمينَ وَقُرَيْشٍ عَشْرَ سَنَواتٍ .

٢ـ مَنْ أَتَىٰ مُحَمَّداً مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيشاً مِمَّنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوْهُ عَلَيْهِ!

٣ـ مَنْ أَحَب أَنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ في عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ .

٤ـ أَنْ يَرْجِعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ مِنْ غَيْرِ عُمْرَةٍ هٰذا العَامَ ، وَفي العَامِ القَادِمِ يَخْرُجُ المُشْرِكونَ مِنْ مَكَّةَ ، وَيَدْخُلُها المُسْلِمُونَ ثَلاثاً دُونَ سِلاَحٍ .

وَوَافَقَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم عَلَىٰ شُرُوطِ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ ، إِلاَّ أَنَّ غَالِبِيَّةَ المُسْلمينَ

رَأَوا في تلكَ الشُّروطِ ظُلماً وَإجْحَافاً لَهُمْ ، لكِنَّ المعْصُومَ صلى الله عليه وسلم حَسَمَ المَسْأَلَةَ بقولِهِ : « أَنَا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي » .

* * *

وَكَانَ فَتْحاً مُبيناً

وَعَادَ المُسْلِمونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ إِلىٰ المَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ ، وَفِي الطَّرِيقِ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالىٰ سُورَةَ الفَتْحِ ، حَيْثُ سَمَّىٰ اللهُ فِيها صُلْحَ الحُدَيْبِيَةِ فَتْحاً مبيناً ، ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح : ١] ، فَكَانَتْ آثارُهُ عَلَىٰ المؤمنينَ هِي : الطُّمَأْنِينَةُ وَالسَّكِينَةُ ، وَزِيَادَةُ الإِيْمَانِ ، وَدُخُولُ الجِنَانِ ، وَتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ ، وَكَانَتْ آثارُهُ عَلَىٰ المُشْرِكين هِيَ : العَذَابُ الأَلِيمُ ، وَغَضَبُ اللهِ ، واللَّعْنَةُ وَالطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَدُخُولُ جَهَنَّمَ....

قَالَ تَعَالَىٰ وَهُوَ يَمْدَحُ مَنْ شَهِدَ بَيْعَةَ الرِّضْوانِ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

وآخرُ دعْوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ

* * *